

الدرس الخامس

﴿ وَنَبِّئُهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿ ٥٢ ﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿ ٥٣ ﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسْنِي الْكَبِيرُ فِيمَا تُبَشِّرُونَ ﴿ ٥٤ ﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿ ٥٥ ﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿ ٥٦ ﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿ ٥٧ ﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿ ٥٨ ﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ ٥٩ ﴾ إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَا إِنهَآ لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿ ٦٠ ﴾ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿ ٦١ ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴿ ٦٢ ﴾ قَالُوا بَلْ جَعَلْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿ ٦٣ ﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿ ٦٤ ﴾ فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿ ٦٥ ﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَآءٍ مَّقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿ ٦٦ ﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿ ٦٧ ﴾ قَالَ إِنَّ هَتُولَآءٍ صَّيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿ ٦٨ ﴾ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿ ٦٩ ﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿ ٧٠ ﴾ قَالَ هَتُولَآءٍ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعَالِينَ ﴿ ٧١ ﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿ ٧٢ ﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿ ٧٣ ﴾ فَجَعَلْنَا عَلِيهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ ﴿ ٧٤ ﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿ ٧٥ ﴾ وَإِنهَآ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿ ٧٦ ﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿ (الحجر: ٥١-٧٧) ﴾

ثلاث قصص تتحقَّق فيها مظاهر الرحمة والعذاب :

وبعد أن قال تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ٥١ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿ ، ذكر ثلاث قصص تبين كيف تتحقَّق مظاهر الرحمة الإلهية ، وكيف يتحقَّق العذاب الأليم ، هذا ما تحكيه القصص التي قصَّها علينا القرآن ، أو قصَّتها علينا السورة بعد ذلك ، ذكرتُ السورة ثلاث قصص :

الأولى : قصة إبراهيم مع لوط ، حينما جاءتا في قصة واحدة .
والثانية : قصة أصحاب الأيكة وهم الذين أرسل إليهم شعيب .
والثالثة : قصة أصحاب الحجر وهم ثمود ، الذين أرسل إليهم صالح عليه السلام .

قصة ضيف إبراهيم :

﴿ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾

أما القصة الأولى : فهي التي يقول الله تعالى فيها : ﴿ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ،
نبيهم ، أي : ﴿ نَبِيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ، ونبيهم ، أي : عبادي عن خبر
ضيف إبراهيم .

وكلمة ﴿ ضَيْفٍ ﴾ : تصلح للواحد وتصلح للجمع^(١) ، ولذلك هنا ضيف إبراهيم
جماعة ، لم يكونوا واحداً ، ولكن كانوا جماعة ، وفي سورة الذاريات : ﴿ هَلْ
أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ﴿ ٢٤ ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴿
(الذاريات: ٢٤، ٢٥) ، ولذلك قال : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ ، فهم مجموعة .

أبو الضيفان :

﴿ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (الحجر: ٥١) . وإبراهيم كان يُسَمَّى أبا الضيفان ؛
لأنه كان ممن يكرمون الضيف ، ويفتحون أبوابهم للضيوف ، مَنْ عَرَفَهُمْ وَمَنْ
لا يعرفهم ، عن عكرمة قال : كان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان ، وكان
لقصره أربعة أبواب ، لكيلا يفوته أحد^(٢) .

(١) وتجمع على أضياف وضيوف وضياف وضيافان .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/٣٣٦) ، والبيهقي في الشعب (٩٦١٧) .

هناك أناس يكرمون الضيوف إذا عرفوهم ، وكانت لهم بهم صلة ، ولكن إبراهيم يُكرم كلَّ ضيف ، كلَّ غريب عن البلد يستضيفه عنده ، فاستضاف هؤلاء القوم الذين لا يعرفهم ، ودَبَّح لهم عَجلاً حَنيذاً مشوياً ، وقربه إليهم .

من كرم الضيافة أن تُقرب الطعام إلى المضيف ، تُقدِّمه له ، وتُقرِّبه إليه ، فحينما قدَّم إليهم هذا العجل المشوي ، لم يأكلوا منه : ﴿ فَأَمَّا رِءَا أَيْدِيهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ (هود: ٧٠) ، الضيف عندما يقدم له الطعام ويأبى أن يأكل منه ، لا بدُّ أن يخاف صاحب البيت منه ، ماذا يريد هذا الضيف؟

الفرق بين قول الملائكة : ﴿ سَلَمًا ﴾ وقول إبراهيم : ﴿ سَلَامٌ ﴾ :
﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾

هم قالوا : ﴿ سَلَمًا ﴾ . وإبراهيم قال : ﴿ سَلَامٌ ﴾ . يقولون في العربية : إنَّ (سلامٌ) أوكد من (سلاماً) ؛ لأنَّ (سلاماً) هذه جملة فعلية ، أي : نُسَلِّمُ سلاماً . أما (سلامٌ) فهي جملة اسمية ، أي : سلامٌ منِّي ، أو تحيتي سلامٌ . ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ (النساء: ٨٦) .

فإبراهيم ردَّ التحية بأحسن منها ، قال : ﴿ قَالَ سَلَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٥) ، أنكر وجوههم ، ليسوا معروفين له ، وكما ذكرت السورة الأخرى ، زاد في إنكاره أنهم لم يأكلوا من طعامه ، ﴿ فَأَمَّا رِءَا أَيْدِيهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ (هود: ٧٠) .

وهنا في سورة الحجر : ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ (الحجر: ٥٢) ، أي : فزِعُونَ خائفون ؛ لأنهم لم يأكلوا من طعامه ، وهذا أدَّى إلى الخوف منهم .

البُشرى بالغلام العليم :

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾^(١)

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ ، كشفوا عن حقيقتهم ، وعرفوه أنهم ملائكة من الله عز وجل .

﴿ إِنَّا ﴾ رسل ربك ، ﴿ نُبَشِّرُكَ ﴾ : نُبَلِّغُكَ مَا يَسُرُّكَ وَيُسَعِّدُكَ ، ﴿ بِغُلَامٍ ﴾ : شاب بالغ ، ﴿ عَلِيمٍ ﴾ : ذي علم كثير .

قَدِمُوا إِلَيْهِ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ، قالوا : إِنَّ هَذَا الْغُلَامُ هُوَ إِسْحَاقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ لِأَنَّ إِسْمَاعِيلَ جَاءَتْهُ بِهِ الْبُشْرَى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ (الصفات: ١٠١) .

إِنَّ سَيِّدَنَا إِبْرَاهِيمَ رَزَقَهُ اللَّهُ غُلَامَيْنِ عَلَى الْكَبِيرِ ، كَمَا ذَكَرْنَا فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ ، قَالَ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ ﴾ (إبراهيم: ٣٩) .

فَإِسْمَاعِيلَ أَوَّلَ مَنْ بَشَّرَ بِهِ بَعْدَ أَنْ نُجِّيَ مِنَ النَّارِ ، قَالَ : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ (الصفات: ١٠٠، ١٠١) .

الغلامُ الحليمُ والغلامُ العليمُ :

إِسْمَاعِيلَ غُلَامٌ حَلِيمٌ ، وَإِسْحَاقُ غُلَامٌ عَلِيمٌ ، وَيَبْدُو جِلْمُ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قِصَّتِهِ مَعَ الذَّبْحِ ، حِينَمَا قَالَ لَهُ أَبُوهُ : ﴿ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ قَالَ يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ

(١) قرأ حمزة : ﴿ نُبَشِّرُكَ ﴾ بفتح النون وإسكان الباء وتخفيف الشين وضمها ، من البُشرى ، وهو البُشرى والبشارة ، وقرأ الباقون : ﴿ نُبَشِّرُكَ ﴾ بضم النون وفتح الباء وتشديد الشين المكسورة من بَشَّرَ الْمُضْعَفُ عَلَى التَّكْثِيرِ . ينظر : (النشر : ٢٢٩/٢) ، و(معجم القراءات القرآنية : ٢٥٧/٣) .

الصَّابِرِينَ ﴿ (الصفات: ١٠٢) ، وَأَسْلَمَ عَنْقَهُ لَهِ ، فَهَذَا نَهَايَةُ الْحِلْمِ ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ ، هُنَا غَيْرُ : ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ (الصفات: ١٠١) هُنَاكَ .

البشري بإسحاق بعد إسماعيل :

وجاءت البشارة بإسحاق مكافأةً لإبراهيم على تضحيته ، وطاعته لأمر ربه في شأن ابنه إسماعيل ، ولذلك قال في سورة الصفات : ﴿ وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ وَدَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴾ (الصفات: ١١٢، ١١٣) .

بعد أن ابتلي بالبلاء المبين ، فدى الله إسماعيل بذبح عظيم ، قال : ﴿ وَقَدَّيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ . . . وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الصفات: ١٠٧-١١٢) ، فهذه البشارة جاءت بعد قصة إسماعيل عليه السلام قال : ﴿ وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ وَدَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴾ (الصفات: ١١٢، ١١٣) .

الإجمال والتفصيل في قصص الأنبياء :

﴿ قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا تَبَشِّرُونَ ﴾

في سورة هود ذكرت هذه القصة بتفصيل أكثر ، وفيها ذكر زوج إبراهيم عليه السلام حينما عجبت : ﴿ قَالَتْ يَوَيْلَآءِ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ (هود: ٧٢، ٧٣) .

لقد فصل في سورة هود ، وأجمل في غيرها ، لأن القرآن يذكر القصص في سور مختلفة ، ولكنه في كل سورة يذكرها بطريقة غير الطريقة التي ذكرت في سورة أخرى ، يُجْمَلُ هُنَا وَيَفْصَلُ هُنَاكَ ، يَذْكَرُ جَوَانِبَ مِنَ الْقِصَّةِ فِي بَعْضِ مَا يَذْكَرُ مِنَ السُّورِ ، وَلَا يَذْكَرُهَا فِي الْجَانِبِ الْآخَرَ ، عَلَى حَسَبِ السِّيَاقِ وَمَا يَقْتَضِيهِ .

تَعَجَّبَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يُوَلَّدَ لَهُ عَلَى الْكِبَرِ :

﴿ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾^(١)

بشروه بسلام عليم ، وكأنه يريد أن يسمع البشرى مرةً أخرى . ﴿ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ ، لأنَّ ما تبشَّر به الملائكة عن الله عزَّ وجلَّ لا يكون إلا حقًا ، ولا يكون إلا أمرًا ثابتًا لا يتخلف ، وما وعدَ الله وعدًا إلا أنجزه : ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (الكهف: ٩٨) ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (آل عمران: ٩) ، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا تُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٦) .

القنوطُ من رحمة الله :

﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنُطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾^(٢)

يستحيل أن أقنط ، لأنَّ القنوط من مظاهر الضلال ، كما أنَّ اليأسَ من لوازم الكفر .

وقد قال سيدنا يعقوب عليه السلام حفيدُ إبراهيم ، قال لبيته حينما أرسلهم إلى مصر : ﴿ يَبْنِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (يوسف: ٨٧) ، فانظر إنها حقًا ذريةٌ بعضها من بعض ، كما قال الله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران: ٣٤) .

(١) ﴿ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالصدق وما هو واقع حقًا ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ ، أي : لا تكن من اليائسين ، من رحمة الله وفضله .

(٢) ﴿ يَقْنُطُ ﴾ قرأ أبو عمرو ، والكسائي ويعقوب ، وخلف : (يَقْنِطُ) بكسر النون . وقرأها باقي العشرة : (يَقْنُطُ) بفتح النون . والقراءتان لغتان عربيَّتان .

﴿ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ : المخطئون طريق المعرفة الحق ، فلا يعرفون سعة رحمة الله ، وكمال علمه وقدرته . والاستفهام للإنكار الإبطالي ، أي للنفي والاستبعاد يريد به إبراهيم نفي قنوطه .

يعقوب عليه السلام يقول: ﴿ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (يوسف: ٨٧) ، لا يئأس من رُوحِ الله إلا من يجهل قدرة الله عزَّ وجلَّ ، ويجهل نفوذَ مشيئته ، وأنه إذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون ولا بدَّ ، فلا رادَّ لقضائه ، ولا مُعقَّبَ لحكمه ، فلا يمكن أن يكون نبيٌّ من أنبياء الله يائساً أو قانطاً : ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ .

ويقول الله عزَّ وجلَّ مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿ قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر: ٥٣) .

تمثل الملائكة بصورة بشرية :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾

التفت إبراهيم إلى هؤلاء الملائكة الذين جاءوا في صورة بشر ، والملائكة تستطيع أن تتصور بصورة البشر ، ولا يتصورون إلا في صورة شريفة ، لا يتصورون في صورة البهائم ، ولا الثعابين ، ولا أمثال هذه الكائنات ، وإنما تتصور الملائكة بصورة كريمة مثل الإنسان ، كما كان جبريل عليه السلام يأتي أحياناً إلى النبي ﷺ في صورة بشر ، كما جاء في صورة الرجل الذي لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه من الجالسين أحد^(١) ، وهو غريب قادم من الخارج ، وكما كان يجيء في صورة واحدٍ من الصحابة اسمه : (دحية الكلبي)^(٢) ، وكان من أجمل الناس وأحسنهم صورة .

(١) رواه مسلم في الإيمان (٨) ، وأبو داود في أول كتاب السنة (٤٦٩٥) ، والترمذي في الإيمان (٢٦١٠) ، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠) ، وابن ماجه في القدر (٦٣) ، عن عمر .

(٢) إشارة إلى الحديث الذي رواه أحمد (٥٨٥٧) وقال مخرجه : إسناده صحيح على شرط مسلم ، بلفظ : « وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية » . عن ابن عمر .

فالملائكة تتصورٌ بغير بشرية ، لذلك جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام في صورة
البشر .

الشأن العظيم الذي أرسلت به الملائكة :

التفت إبراهيم عليه السلام إليهم ، وقال : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾
ما أمركم الخبير ، وما شأنكم الذي أرسلتم لأجله سوى البشارة؟ وهو عالم أنهم لم
يجيئوا بهذه البشارة وحدها ، بدليل أنهم لم يبدئوا من أوّل الأمر ، ثم البشارة
تحتاج إلى واحد وهؤلاء جماعة ، قال : لا بدّ أن لكم شأنًا وقصدًا عظيمًا خطيرًا
جئتم من أجله .

قصة قوم لوط :

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٨١﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾
﴿ إِلَّا أَمْرًا نُّدْرِكُهُ فَإِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾

قصة قوم لوط كررها القرآن في عددٍ من السور ، ذكرت قبل ذلك في سورة
الأعراف : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَّةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ
الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴿٨٢﴾ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
مُّسْرِفُونَ ﴿٨٣﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ
إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٨٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٥﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٠-٨٤) ،
وذكرت في سورة هود : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمٍ وَسِئَاءَ يَوْمٍ ذَرْعًا
وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ ﴿٧٨﴾ قَالَ يَنْقَوْمِهِمْ هُنَّ أُمَّهَاتُكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُنُوا فِي صِيفِي
الْيَسِّ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٩﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ

لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٦﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ إِيَّايَ إِلَى زُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَا إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ ﴿٧٩﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٠﴾ (هود: ٧٧-٨٣)،
وفي سورة الحجر التي معنا ، وستذكر بعد ذلك في عددٍ من السور .

إنها قصة غريبة ، قصة قوم أدمنوا الفاحشة ، كما قال لهم نبيهم لوط : ﴿ أَتَأْتُونَ
الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٠) ، ابتكروا هذه
الفاحشة ابتكاراً ، فكان عليهم وزرها ووزر من عملها من بعدهم ، كما في الحديث
الذي رواه مسلم : « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً حَسَنَةً ، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا
بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً سَيِّئَةً ، كَانَ
عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »^(١) .
إنهم ابتكروا هذه الفاحشة ، ما حَدَّثَتْ هذه الفاحشة في قوم من الأقوام قبل قوم
لوط ، فاحشة إتيان الذكور ، أو ما كانوا يسمونه في عصرنا : (الشنوذ الجنسي) .
والآن لم يعودوا يسمونه الشنوذ الجنسي ؛ لأنَّ كلمة الشنوذ هي اسم ذم ، وهؤلاء
لا يريدون أن يذمهم أحد ، فأصبحوا يسمونه : (المثلية) . أي : الرجل يأتي الرجل ،
والمرأة تأتي المرأة ، قوم لوط قاموا بهذه الفاحشة وأصبحت معروفة بينهم ،
واستمرؤوا هذه الرذيلة ، وتركوا نساءهم اللاتي خَلَقَهُنَّ اللهُ لهم ، فجاء عن سيدنا
لوط في سورة الشعراء : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ
رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ (الشعراء: ١٦٥، ١٦٦) .

(١) رواه مسلم في العلم (١٠١٧) ، وأحمد (١٩١٥٦) ، عن جرير بن عبد الله .

لقد خلق الله المرأة للرجل : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ (البقرة: ١٨٧) ،
 حتى الخلقة الجسمية مهيأة لذلك ، ولكن هؤلاء انتكسوا وارتكسوا ، قلبوا فطرة الله
 التي فطر الله الناس عليها ، فلذلك استحقوا عذاب الله ، ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ
 الْأَلِيمُ ﴾ ، فجاء هؤلاء الرسل من الملائكة لينزلوا بهم عذاب الله .
 حقيقة المهمة التي أرسل الملائكة من أجلها إلى إبراهيم :

﴿ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ مُجْرِمِينَ ﴾ ^(١) ، أي : أرسلنا لهم بالعذاب ، فهم
 بسبب كونهم بلغوا حقيقة الإجرام يستحقون الإهلاك الشامل ، واستثنوا لوطاً وآله ،
 فقالوا : ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ^(٢) إِنَّا لَمُنَجُّهُمْ ^(٣) أَجْمَعِينَ ﴿٤﴾ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ ^(٤) قَدَرْنَا ^(٥)
 إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ ، أي : من الباقيين في العذاب ، ليست ممن كتبت لهم النجاة ؛
 لأنها كانت ضد زوجها سيدنا لوط ، وكانت تُعرّف القوم بمن يأتي إلى لوط من
 الضيوف ، كانت نمامة كلما جاء للوط ضيفٌ ذهب إلى قومها وأخبرتهم بمجيئهم .

(١) في الآية كناية . أي : هم مرسلون إلى إهلاك قوم مجرمين وتعذيبهم ، ففي وصفهم لقوم
 لوط عليه السلام بأنهم قوم مجرمون ، مع قرينة إرسالهم من الله لهم ، كناية عن أنهم
 يحملون رسالة تعذيب وإهلاك لهم .

(٢) الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ استثناء منقطع من قوم ، لأن القوم موصوفون
 بالإجرام وآل لوط لم يجرموا .

(٣) قرأ حمزة ، والكسائي ، ويعقوب ، وخلف : ﴿ لَمُنَجُّهُمْ ﴾ بالتخفيف ، من فعل (أنجى)
 والباقون بالتشديد (لمنجوهم) من فعل (نجى) وهما لغتان عربيتان متكافئتان . (التيشير
 للداني : ص ١٣٦) ، و(معجم القراءات القرآنية : ٢٦٠/٣) .

(٤) الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ ﴾ : استثناء من استثناء ، وتقديره : أهلكتناهم إلا آل
 لوط إلا امرأته .

(٥) قرأ أبو بكر عن عاصم : ﴿ قَدَرْنَا ﴾ بتخفيف الدال ، والباقون بتشديدها . (النشر : ٢٠٢/٢)
 ، و(معجم القراءات القرآنية : ٢٦٠/٣) . وهما لغتان عربيتان بمعنى تحديد مقادير عناصر
 الأشياء .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ^(١) ﴿٣٦﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾

أتى الملائكة لوطاً عليه السلام في داره ، وفي الدار زوجته وأبناؤه ، ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ قال لوط لهم : أنتم مجهولون بالنسبة إليّ لا أعرفكم ، ولا أعرف من أيّ قوم أنتم؟ وذلك قبل أن يكشفوا القناع عن أنفسهم . أنكرهم وما عرفهم ، وقال : ما الذي جاء بكم إلى هذا البلد؟ مَنْ يخاطر بنفسه ويأتي بلداً مثل هذا ، فيفتسه أهلها؟ ولا يمكن أن ينجوا منهم ، أما سمعتم بما يفعلون ، أنكرهم و ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ .

﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾

جئناك بعذاب هؤلاء القوم ، الذي يشكّون في نزول العذاب بهم ، ويستبعدونه ولا يظنون أنّ نعمة الله تنتظرهم ، وأنّ الله لهم بالمرصاد ، وأنّ الله يمهّل ولا يمهّل : ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ ^(٢) .

﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

أي : بالعذاب المتيقّن الثابت الذي لا شك فيه ، المقرّر لهم من الله عزّ وجلّ ، ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ ، فيما نقوله ^(٣) .

(١) المرسلون : هم الملائكة الذين كانوا عند إبراهيم عليه السلام ، و ﴿ الْمُرْسَلُونَ ﴾ : فاعل مؤخر مرفوع بالواو .

(٢) فأتوا بكلمة : ﴿ بَلْ ﴾ التي تدل على الإضراب مما خشي لوط من ترك نصرتهم له ، أي : ما تركنا نصرتك ، بل جئنا لنصرتك بالعذاب الذي كنت تتوعّد قومك به ، وكانوا يشكّون فيه ، ويكذبونك من أجله ، ثم أكّد الملائكة كلامهم قائلين : ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ .

(٣) وتأكيداً لصدقهم بادروا إلى نصرته ، فطمسوا أعين قومه ، وأخذوا على أبصارهم ، فانصرف قوم لوط وهم لا يبصرون شيئاً ، يتلمّسون طريقهم بأيديهم ، وهم يقولون : إنّ لوطاً يؤوي في بيته أسحر أهل الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ ^(٣٦) ، وَلَقَدْ رَؤدوه عن ضيفيه ، فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي ^(٣٧) ، وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ^(٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي ﴿ (القمر: ٣٦-٣٩) .

أمر الملائكة بالمشير ليلاً :

﴿ فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾

ثم أمرت الملائكة لوطاً عليه السلام بعد أن هدؤوا قلقه ، وسكنوا خوفه ، بأوامر أربعة :

الأمر الأول :

أن يترك هذا البلد الظالم أهله ، ويهاجر مع المؤمنين من أهل بيته ، لينجوا من العذاب الذي سينزل بهم ، فقال تعالى : ﴿ فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ ، في جزء من الليل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا عَالَ لُوطٌ حَسِبْنَاهُمْ مِسْحَرًا ﴾ (القمر: ٣٤) ، فقال له : أسر . والإسراء : هو السير بالليل . كما قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ (الإسراء: ١) ، فقال له : أسر بأهلك في جزء من الليل ، بعد منتصف الليل ، اخرج من هذا البلد ، من هذه القرية التي تعمل الخبائث .

الأمر الثاني :

أمير الجماعة يسير خلفهم :

﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ ، أي : امش خلفهم لكي ترى من هناك ، ليس أحد قد تخلف^(٢) .

(١) قرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو جعفر : ﴿ فَأَسْرِبْ ﴾ من فعل : (سرى) . وقرأها باقي القراء العشرة : (فأسر) من فعل : (أسري) . وهما لغتان عربيتان .

(٢) وصى الملائكة لوطاً عليه السلام بأن يكون في مؤخرة أهله ليجمعهم ، وليطّلع على أحوالهم ، وهكذا ينبغي أن يكون حال أمير القوم أو الجماعة في حال الانسحاب من مكان الخطر ، يسير في آخرهم ، ويقدم نجاتهم على نجاته نفسه ، ويحمي ضعيفهم ، ويحمل المنقطع منهم .

وتلك كانت سنة النبي محمد ﷺ ، فقد كان يمشي خلف الجيش^(١) ، يحمل المنقطع ، ويرى حاجة العاجز . فقال : أتبع أديبارهم ، كن خلفهم حتى تطمئن أنهم كلهم صاروا أمامك .

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَآمَضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾

الأمر الثالث :

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ : لا تنظر إلى الخلف ، دَع القوم وما ينزل بهم من عذاب ، حتى حينما تسمعون الصيحة أو الصاعقة لا علاقة لكم بهؤلاء^(٢) .

الأمر الرابع :

﴿ وَآمَضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾^(٣) ، إلى المكان الذي تؤمرون به ، إلى القرية التي ستهبون إليها ، التي ليس فيها عمل السيئات .

القضاء المبرم باستئصال قوم لوط في الصباح :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾^(٤)

قضينا إلى لوط ذلك الحكم الذي قضاه الله إليه ، وأوحاه إليه مبتوتاً مقضياً

(١) إشارة إلى حديث : « كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ، ويردف ويدعو لهم » . رواه أبو داود في الجهاد (٢٦٣٩) ، والحاكم في الجهاد (١١٥/٢) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وحسن إسناده النووي في رياض الصالحين (٩٧١) ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٢٠) ، عن جابر بن عبد الله .

(٢) أو لا يلتفت منكم أحد متحسراً على مفارقة الوطن .

(٣) الفعل في : (تؤمرون) بصيغة المضارع يدل على أن أمراً سيوجه لهم الأمر بالسير في الطرقات ، وإلى الجهات التي يعينها لهم أنا فأنأ .

(٤) ﴿ ذَلِكَ الْأَمْرُ ﴾ أي : ذلك الأمر الجليل العظيم الهائل الخطير . (ذلك) مفعول به لفعل (قضينا) . (الأمر) بدل من (ذلك) أو عطف بيان . وجاء في العبارة استعمال اسم الإشارة الموضوع للبعيد ، للدلالة على أن الأمر العظيم الفظيع الذي كان مستبعداً جداً ، وقد تم به القضاء الرباني ، وصار حقيقة وشيكة الوقوع (معارض التفكير) (٧٢/١١) .

لا رجعة فيه : ﴿ أَنْ ذَابِرَ هَتُؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ ^(١) ، حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ اللَّهِ : أَنَّهُ فِي الصَّبَاحِ سَيَقْطَعُ ذَابِرَهُمْ ، آخِرَ مَنْ يَبْقَى مِنْهُمْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ ، وَإِنْ انْقَطَعَ آخِرُهُمْ ، فَقَدْ انْقَطَعَ أَوْلَهُمْ ، فَالْمَعْنَى : فَقَطَعَ الْقَوْمَ جَمِيعَهُمْ ، مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى آخِرِ وَاحِدٍ فِيهِمْ .

﴿ فَقَطَعَ ذَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٤٥) ، سَيَقْطَعُ الْأَمْرَ ، ﴿ أَنْ ذَابِرَ هَتُؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ ، حِينَمَا يَصْبِحُ الصَّبَاحُ وَتُشْرِقُ الشَّمْسُ يَنْزِلُ عَذَابُ اللَّهِ بِهَؤُلَاءِ ، يَسْتَقْبِلُونَ عَذَابَ اللَّهِ ، النَّاسُ تَسْتَقْبِلُ الصَّبَاحَ بِالْخَيْرِ وَالْبِرْكَةِ ، وَهَؤُلَاءِ يَسْتَقْبِلُهُمُ الْعَذَابُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ هُودٍ : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (هود: ٨١) ، ﴿ أَنْ ذَابِرَ هَتُؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ ، فِي سَاعَةِ الصَّبَاحِ وَالْإِشْرَاقِ .

اسْتَبْشَارُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بِضِيُوفِ لُوطٍ :

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

أَهْلُ الْمَدِينَةِ : هُمُ أَهْلُ مَدِينَةِ سَدُومَ ^(٢) ، وَهُمُ قَوْمُ لُوطٍ ، لَمَّا أُخْبِرُوا أَنَّ فِي بَيْتِ لُوطٍ رَجُلًا مُرَدًّا حَسَانًا وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ .

(١) هَذِهِ الْعِبَارَةُ بَدَلٌ مِنْ ﴿ ذَلِكَ الْأَمْرُ ﴾ لِتَفْسِيرِهِ وَرَفَعِ إِيْهَامَهُ الَّذِي جَاءَ بِأَسْلُوبٍ فِيهِ تَهْوِيلٌ وَتَعْظِيمٌ . وَهُوَ بَدَلٌ كُلِّ مِنْ كُلِّ . وَذَابِرُ الشَّيْءِ : أَيُّ : وَآخِرُهُ . ﴿ مَقْطُوعٌ ﴾ بِالْإِهْلَالِ وَعَنْ الْبَقَاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَأَصْلُ الْقَطْعِ : الْبَتْرُ لِفَصْلِ الشَّيْءِ عَمَّا هُوَ مُوَصُولٌ بِهِ ، فَقَطَعَ الْحَيَّ عَنْ الْحَيَاةِ يَكُونُ بِإِمَاتَتِهِ وَإِهْلَالِهِ ، وَقَطَعَ الْأَنْبِيَةَ وَالْقُرَى يَكُونُ بِتَدْمِيرِهَا وَإِزَالَةِ كُلِّ أَثَرٍ لَهَا ، وَقَطَعَ الشَّيْءَ عَنِ الْوُجُودِ يَكُونُ بِإِعْدَامِهِ . ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أَيُّ : حَالَةَ كَوْنِهِمْ دَاخِلِينَ فِي وَقْتِ الصَّبْحِ أَوَّلِ النَّهَارِ .

(٢) الْمُرَادُ بِأَهْلِ الْمَدِينَةِ : كِبْرَاؤُهَا وَأَصْحَابُ الْأَمْرِ الْمَطَاعِ فِيهَا ، وَمَعَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ وَأَنْصَارُهُمْ .

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾^(١) يغمرهم الفرح والسرور بما سيلقون ،
الواو هنا لا تفيد ترتيماً ولا تعقيباً^(٢) ، جاؤوا طمعاً في نيل شهوتهم من الضيوف ،
جاءوا فرحين ، بالغنيمة الجديدة ، بالصيّد الذي أقبل عليهم .

التّصدي والدفاع عن ضيوفه :

﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾

قال لوط عليه السلام لقومه : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي ﴾ . أي : ضيوفي ، وحقّ على
الرجل أن يكرم ضيفه ، أي : يا قومي ، هؤلاء الناس ضيوف عليّ ، نازلون في
ضيافتي وحمائتي ، فلا تفضحوني^(٣) .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾^(٤)

يريد أن يذكرهم بالله ، يذكرهم بالتقوى ، يذكرهم بمكارم الأخلاق ، ضيفٌ
على البلد ، وعلى سيد البلد لوط ، فيأتي القوم يريدون أن يفترسوهم .

(١) أي : يتجدّد لهم الفرح والسرور ، ويبشّر بعضهم بعضاً بهذه الغنيمة السهلة . فاستعمل
لفظ : ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ في معنيين . يقال لغة : (استبشر) أي : فرح وسرّاً ، ويقال : استبشر
فلانٌ فلاناً ، أي : بشره بما يفرحه ويسره .

(٢) بعد أن استبقت الآيات الحوادث ، وبادرت إلى كشف حقيقة ضيف لوط والمهمة التي
جاءوا من أجلها ، عادت إلى الوراثة لتبيّن شذوذ قوم لوط ، وما فعلوا حين سمعوا بقدوم
ضيف لوط عليه السلام .

(٣) أي : لا تفعلوا ما يلزمني العار منه في حقّ ضيفي فايدأؤهم إيذاءً لي ، وخزيّ وعار ،
وأنتم جديرون أن تحفظوا جوارِي .

(٤) ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وتجنّبوا عصيانه والزموا طاعته ، ﴿ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ ولا تدلوني بظلم ضيوفي ،
لأنّ من أهين ضيفه فقد أهين هو .

تَسْعَرُ شَهْوَةَ الشُّذُودِ عِنْدَ قَوْمِ لُوطَ :

﴿ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾^(١)

قبل هذا نهيناك ، وقلنا : لا تستضف أحداً يمرُّ بهذا البلد ، كلُّ مَنْ يمرُّ بهذا البلد هو حقٌّ لنا ، ومتاعٌ لنا ، لماذا تستضيفهم وتحميمهم عندك؟
سؤل لهم الفساد ، والشذوذ ، والهوى الجامح أن يلقوا تبعه فجورهم مع الضيوف على نبي الله لوط!!

﴿ قَالَ هَتُّوْلَاءِ بَنَاتِي ﴾^(٢) **﴿ إِن كُنْتُمْ فَعِلِينَ ﴾**

ثم ذكرهم بالطريق الفطري الذي أحله الله لقضاء الشهوة المتقدمة في نفوسهم :
﴿ قَالَ هَتُّوْلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنْتُمْ فَعِلِينَ ﴾ ، ما أمركم به ، تزوجوا من بناتي كما هي الفطرة الطبيعية ، كما هي طبيعة الخلق ، وكما هي شريعة الخالق .
وفي سورة هود يقول : **﴿ هَتُّوْلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾** (هود: ٧٨) .

ما المراد بنات لوط ؟

هل يريد بناته من صلبه؟ أم يريد بنات أهل البلد؟ فجميعهن يُعْتَبَرْنَ بناته ؛ لأنه يعتبر بمثابة الأب لهم ، وتعتبر البنات كلهن بناته ، هذا محتمل ، وهذا محتمل^(٣) .

(١) الاستفهام إنكاري توبيخي .

(٢) فتح باء المتكلم من : (بناتي) نافع ، وأبو جعفر . وأسكنها باقي القراء العشرة .

(٣) وعلى كلا الاحتمالين ، فإن لوطاً عليه السلام ، كان يعلم من عاداتهم وتقاليدهم أنهم لا يعتدون على نساء لا حقَّ لهم بمعاشرتهنَّ إلا عن طريق الزواج ، حفاظاً على أنسابهم ، فأراد أن يحرجهم بعرض بناته عليهم ، وهو يعلم أنهم لن يقبلوا ذلك ، ولو فعلوا لافترضوا وسقطوا من أعين قومهم ونسائهم ، ولفجرت نساؤهم نكايَةً بهم . لكن عادة إتيان الذكور لم تكن تثير غيرة نسائهم ، وكانت في نظرهم بمثابة الأمور العادية ، كالطعام والشراب واللهو واللعب ونحو ذلك . ودلت عبارة **﴿ إِن كُنْتُمْ فَعِلِينَ ﴾** باستخدام حرف الشرط (إن) على أن لوطاً عليه السلام كان على علم بأنهم لن يصيبوا عرضه ، لأن حرف الشرط (إن) يقصد استعماله في الأمر المشكوك فيه ، أو فيما لا ينتظر وقوعه . (معارج التفكير : ٧٥، ٧٤/١١) .

وهو يقصد أن يتزوجوا من النساء ، ونَسَبَ البنات له لعلهم يَسْتَحُونَ ، كما يقولُ أحدنا للغضبان : يا أخي ، اضربني أنا ، خُدْ حَقَّكَ مِنِّي ، فيمكن أن يستحيوا أو يخجلوا ، ولكن مَنْ هم؟ هؤلاء قومٌ لا تَوَثَّرُ فيهم موعظة ، يُخاطِبُهُمْ : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ : هل هم يعرفون الله حتى يَتَّقُوهُ؟ إِنَّ هؤلاء أصبحوا عبيد الشهوة ، الغريزة أصبحت تستعبدهم وتُسَخِّرُهُمْ ، وليتهم سَخَّرُوها في منفذ طبيعيٍّ كما يفعل الناس الأسياء ، وذلك بالزواج من الحرائر ، ولكن هكذا مَشُوا في هذا الطريق المعوج ^(١) .

حَلَفُ اللَّهِ سبحانه بعَمْرُ النبي ﷺ :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ^(٢)

﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ : قَسَمٌ بالعمر ، بالحياة ، هل هذا خطابٌ للنبي ﷺ؟ الأكثرون على أنه خطابٌ للنبي ﷺ ^(٣) .

(١) لقد أعرضوا عن عرضه ، وقالوا له ما جاء بيانه في سورة هود : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتِ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُنَّ مَا نُرِيدُ ﴾ (هود:٧٩) .

(٢) (لعمرک) : العمر - بفتح العين أو ضمها - هو الحياة : وإذا حلفوا به ، التزموا الفتح ، فالمعنى : وحياتك . واللام لام القسم ، (عَمْرُكَ) مبتدأ مضاف إلى ضمير المخاطب ، والخبر محذوف تقديره : (قسمي) أو (يميني) وهو لازم الحذف . والمقسَمُ عليه جملة : ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ والسكرة : المرّة من السُّكْر ، هو غيبوبة العقل بسبب الشراب المسكر ، أو الغضب أو الشهوة العارمة الطاغية التي حجبت عقولهم . ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي : يتحيرون ويترددون منطمسي البصائر . العمه في البصيرة كالعمى في البصر .

(٣) قال القاضي أبو بكر بن العربي : قال المفسرون بأجمعهم : أقسم الله تعالى ههنا بحياة محمد ﷺ تشريفاً له . وهكذا قال القاضي عياض : أجمع أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ ، وأصله ضم العين ، من العمر ، ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال ، ومعناه : وبقائك يا محمد . وقيل : وحياتك . وهذا نهاية التعظيم ، وغاية البشر والتشريف . (تفسير القرطبي : ٣٩/١٠)

معنى هذا : أن الله حَلَفَ بحياة محمد ﷺ ، وهذا لونه من التَّشْرِيف والتَّكْرِيم لم يظفر به نبيٌّ غير محمد ﷺ ، أن يقسم الله بحياته (١) .

وبعضُ المفسِّرين يقول : هذا خطابٌ من الملائكة للوط عليه السلام ، قالوا له : لَعْمُرُكَ ، ماذا تقول لهم؟ هؤلاء لا يلتفتون إلى الزواج بالبنات ولا بالنساء ، هؤلاء انتكست فطرتهم .

مصيبة الإدمان :

﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

فما استطاعوا تمييز الخطأ من الصواب ، يشير إلى مصيبة الإدمان .
الإنسان حينما يُدمن شيئاً ويداوم عليه يفقد عقله ، يفقد رُشدَه ، يفقد إرادته ، يفقد إنسانيَّته ، فهؤلاء فقدوا إنسانيَّتهم ، فأصبحوا كالأنعام ، بل هم أضلُّ من الأنعام سبيلاً ، فالبهائم لا تفعل ما يفعل هؤلاء ، لا نجد ثوراً يطاءً ثوراً ، ولا كلباً يطاءً كلباً . لا ثمَّ لا ، الكلب لا يطاءً إلا كلبه ، والثور لا يطاءً إلا بقرة ، لكن هؤلاء أصبحوا كالبهائم ، بل أضلُّ من الأنعام سبيلاً .

ثلاث عقوبات نزلت بقوم لوط :

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴾ (٢)

الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للأنبياء والمرسلين ، كل أمة بنوع من أنواع

(١) روى الطبري في تفسيره (٤٤/١٤) ، والحارث بن أبي أسامة في مسنده (٩٧٤) ، عن ابن عباس : ما خلق الله تعالى خلقاً أكرم عليه من محمد ﷺ ، وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته ، فقال : ﴿ لعمرك ﴾ .

(٢) (فأخذتهم) أي : نزلت بهم وأهلكتهم جميعاً ﴿ الصَّيْحَةُ ﴾ : صيحة جبريل بهم ، وهي صرخة صوتية عظيمة تنزل وتدمر ، ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ عند شروق الشمس ، لأنَّ ابتداء عذابهم كان عند طلوع الفجر ، وآخره عند طلوع الشمس .

العذاب ، أما قوم لوط فقد أهلكهم الله عزَّ وجلَّ بثلاثة أنواع من العذاب ، كلُّ واحدة منها تكفي لاستئصالهم وإهلاكهم جميعاً :

العقوبة الأولى :

(فأخذتهم) أي : نزلت بهم وأهلكتهم جميعاً ﴿ أَلصَّيْحَةُ ﴾ : صيحة جبريل أو ملائكة العذاب بهم ، وهي صرخةٌ صوتية عظيمة تزلزل وتدمر ، ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ عند شروق الشمس ، لأنَّ ابتداء عذابهم كان عند طلوع الفجر ، وآخره عند طلوع الشمس .

الجزء من جنس العمل :

﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا ﴾^(١)

وصحب هذه الصيحة ، وهذا الصوت الشديد الهائل القاصف ، شيءٌ آخر وعقوبةٌ ثانية ، وهي : أنَّ جبريل قَلَعَ الأرض بهم ، ورفعها إلى السماء ، ثم أهوى بها مقلوبة نحو الأسفل ، قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا ﴾ (الحجر: ٧٤) ، جعلَ اللهُ عَلَيْهَا سَافِلَهَا ، وسافلها عَلَيْهَا^(٢) ، وقلب بلادهم .

قلبوا الفطرة ، وارتكسوا وانتكسوا ، فعُوقبوا بمثل عملهم ، والجزءُ من جنس العمل ، قَلَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَرِيَّتَهُمْ ، وجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾

(١) الفاء عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية . ويتحدث الربُّ سبحانه في قوله : ﴿ فَجَعَلْنَا ﴾ ﴿ وَأَمْطَرْنَا ﴾ بضمير المتكلم العظيم لإرهاب الكافرين المعاندين المتمادين في غيهم ، جلَّ جلاله ، وعظم سلطانه .

(٢) حُذِفَ هذا اكتفاءً بدلالة ما قبله عليه .

وزاد على ذلك ، شيئاً آخر ، وعقوبةً ثالثة ، وهي : المطر المتتابع بحجارةٍ من طينٍ مشويٍّ متحجّرٍ ، حُميَ عليه حتى أصبح سَجِيلاً : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ ﴾ .

في هذه السورة : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ ﴾ ، وفي سورة هود : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ (هود:٨٢،٨٣) ، كلُّ حَجَرٍ مُّعَلَّمٌ بعلامةٍ خاصّةٍ ذاهبٌ إلى صاحبه ، فأهلكهم الله جميعاً ، حاضرهم وغائبهم ، إذ تتبعتهم الحجارة فأهلكتهم ، وطهرت الأرض من فسقهم ورجسهم .

فَعُوقِبُوا بهذه العقوبات الثلاث جِراء ما عملوا ، ويمكن أن يكون ما وقع لهم ظاهرة كونيّة ، مثل البركان حين ينفجر ، أو جند لضربهم وإهلاكهم . لعلّه بركان بما يحمل من معادن وغازات ، أو نحوها ، فأهلكهم الله عزّ وجلّ . والأولى أن نفسر على ظاهر ما في القرآن ، حين قال : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّيْنَا مَا غَشَّى ﴾ (النجم:٥٣-٥٤) .

أهلك هذه القرية التي كانت تعمل الخبائث ، كما قال القرآن : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْقِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٤) ، قرية اسمها سدُوم وعموراء ، كما جاء في التوراة ، قُلبت هذه القرية وانتهت ، قُطِعَ دابر أهلها تماماً ، عقوبة من الله لهذا الأمر الذي استحدثوه من دون العالمين .

أوصاف قوم لوط عليه السلام في القرآن :

القرآن وصفهم بأسوأ ما يُوصف به البشر على لسان سيّدنا لوط عليه السلام قال : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف:٨٠) ، ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (الأعراف:٨١) ، ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ جَهْلُونَ ﴾ (النمل:٥٥) ، ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (الشعراء:١٦٦) ، ﴿ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (العنكبوت:٣٠) .

وصفهم بالإسراف والجهل والاعتداء والإفساد ودم القرية ﴿الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ
الْخَبِيثَۃُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسِيقِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٤) ، ﴿وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ
وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ (العنكبوت: ٢٩) ، هذا الأمر جعلهم يقطعون
السبيل ، اشتغلوا قطاع طريق ، لا ليستولوا على الأموال ، ولكن ليأخذوا الرجال
والشباب ، وليعملوا هذه الخبائث ، والذي أغراهم بالملائكة أنهم جاءوا في صورة
شباب حسان الوجوه ، فزادهم هذا إصراراً على الشرِّ ، فمن أجل ذلك عاقبهم الله
على إجرامهم وإفسادهم وفسوقهم وجَهْلهم وإسرافهم بهذه العقوبة الشديدة .

تقنين الشذوذ الجنسي في عصرنا :

وللأسف في عصرنا قامت الحضارة الحديثة ، الحضارة الغربية التي يُسمِّيها
بعضهم الحضارة الكونيَّة ، الحضارة التي تسودُ الكون ، وتسودُ العالم ، جاءت هذه
الحضارة لتعيد من جديد عادة قوم لوط .

قوم لوط جاءوا بأن يستغني الذكور بالذكور ، فلم تكنف بهذا الحضارة الحديثة ،
بل جاءت باستغناء الإناث بالإناث ، زادوا بالطين بلَّة ، والداء عِلَّة ، ثم جعلوا هذا
أمراً مقنناً .

كان قوم لوط أهل قرية من القرى ، مهما فعلوا لن يؤثّر ذلك في العالم ، ولكنَّ
الحضارة الغربية حضارة ممتدة واسعة ، تُؤثّر في أمريكا ، تُؤثّر في أوروبا ، تُؤثّر
في أستراليا ، تُؤثّر على بلاد كثيرة في العالم ، في آسيا وإفريقيا ، جاءت بهذا
الشذوذ الجنسي ، بل كما ذكرت من قبل ، لم يعودوا الآن يُسمونه شذوذاً ، بل
يُسمونه مثليَّة ، وسموا هؤلاء الشاذين بالمثليين ، أي الذي يستغني بمثله ، الرجلُ
يستغني بالرجل ، والمرأة تستغني بالمرأة . وسنوا قوانين تبيحُ هذا الأمر ، وتقرُّه
وتعتبره أمراً مباحاً .

وللأسف أقرت هذا أيضاً بعض الكنائس النصرانية ، وأصبح يوجد في أوروبا وأمريكا بعض القساوسة الذين يعلنون في الصحف ، أو يعلنون في التلفزيونات : القس فلان الفلاني يعقد عقود الزواج المثلية . يذهب القسيس يبارك هذا الزواج المثلي ، فيكتبه القسيس .

انظروا ماذا حدث في هذه الحضارة الغربية ، وأصبح هؤلاء لهم سلطان ، أصبحوا من الجماعات الضاغطة على السياسيين ، ولهم في الانتخابات تأثير على الرؤساء في أمريكا ، وفي غيرها من البلدان الكبيرة ، فيخطبون ودَّ هؤلاء المثليين ، لأنهم أعداد كبيرة ، فمن كان في صفه أعداد مثل هؤلاء ربما يكون هو الناجح في الانتخابات ، هذا ما حصل في الحضارة الغربية ، التي يتباهى بها المتباهون ، ويفخر بها المتفاخرون .

حملة مغرضة :

ومنذ نحو سبع سنوات^(١) ، كنتُ في مدينة لندن ، رأس اجتماع المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث ، وكذلك الاجتماع الأول للجمعية التأسيسية الأولى لإنشاء الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ، فقامت عليّ حملة ضخمة كبيرة ، تولتها الصحف والإذاعة والتلفزيون بقنواتها المختلفة ، وأدواتها الهائلة ، كانت هذه الحملة من أجل أمرين أساسيين :

أمر يتعلق بالقضية الفلسطينية : أني أقول بإباحة العمليات الاستشهادية للفلسطينيين ، الذين يُذبحون ويُسردون وتُغتصب أرضهم ، وتُقتل زراعاتهم وأشجارهم ، ويفعل بهم ما يفعل ، فمن حقهم أن يدافعوا عن أنفسهم ولو بالعمليات الاستشهادية .

والأمر الآخر : هو أنني أقف موقفاً عدوانياً من الشواذ . سألني مندوب التلفزيون البريطاني في أحد برامجهم الشهيرة : إنك تقف موقفاً عدوانياً من هؤلاء

(١) في سنة ٢٠٠٤ م .

الشواذُّ أو المثليين ، وهم يمارسون حقهم . أصبح هذا من حقوق الإنسان ، يمارسون حقهم في الاستمتاع ، ما لكم تقفون ضد هؤلاء؟
موقفي من الشاذين جنسياً :

وقلتُ لمنذوب التلفزيون الذي سألني : إنني لستُ وحدي الذي أفتُ من هؤلاء هذا الموقف ، إنَّ هذا موقف الأديان الكتابية الكبرى ، موقف اليهودية والمسيحية والإسلام ، موقف التوراة والإنجيل والقرآن ، موقف حاخامات اليهود وآباء النصارى وعلماء الإسلام ، بل موقف كلِّ فلسفه أخلاقية سوية . ولو أنَّ الناس استجابوا لهذه النزعة الشهوانية لانقرضت البشرية بعد جيل أو جيلين ؛ لأنَّ البشرية لكي تبقى لا بدَّ أن يظلَّ الزواج الفطري الطبيعي الشرعي ، الذي يرتبط فيه الذكر بالأنثى ، أو ترتبط فيه المرأة بالرجل ، هذا هو الذي يمكن أن يُنجب أولاداً (أبناء وبنات) ، لكن حين يكتفي الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة ، ستفنى البشرية ، لو استجاب الناس لهذه النزعة سيفنون لا محالة .

فللأسف ، كيف رأينا البشرية قد ضلَّت الطريق ، وكيف تلوَّث سلوكُ الناس ، وكيف بُعدت هذه الحضارة عن منهج الأنبياء ، عن منهج رُسل الله عليهم السلام . وقد ذكرت كتب السماء التوراة والإنجيل عمَّا أصاب سدوم وعاموراء ، قرية لوط ، وقوم لوط من عذاب الله عزَّ وجلَّ ، ولكن هؤلاء في وادٍ ، وكتب السماء في وادٍ آخر ، ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الحجر: ٧٣-٧٤) ، عند وقت الشروق أصابهم ما أصابهم .

آياتٌ وعبرٌ للمعتبرين :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾^(١)

في هذه القصة آيات وعبر للمتوسمين : أي : المتفرسين ، المتوسم هو الذي

(١) ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ المذكور الذي في قصة إبراهيم ولوط ، ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ دلالات على وحدانية الله وقدرته وتفردَه بالصفات الجليلة ﴿ لِمُتَوَسِّمِينَ ﴾ للناظرين المعتبرين المتأملين المتعظين بما يعلمون ويتدبرون من الأحداث والحقائق .

يعرف بالسَّمة ، كما ورد : « اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ »^(١) ثم قرأ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ . وبعضهم قال : المتوسِّمين أي : المُعتَبَرين . وبعضهم قال : الناظرين . وبعضهم قال : المتفكِّرين . كلُّها في معنى واحد متقارب ، فالمتوسِّمون الذين لهم عقول يعتبرون بها ، لا تمرُّ عليهم هذه القصص وهم غافلون عنها .

لماذا قصَّ الله علينا القصص ، للتسلية ؟ لا : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف: ١١١) ، ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود: ١٢٠) ، في هذه القصص عبرة لمن يعتبر : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ .

مكان قرية (سدوم) :

﴿ وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ ﴾

القرية التي أصابها عذابُ الله عزَّ وجلَّ في طريق واضح سهل مُيسَّر للجميع لم يندثر ، لا زال ثابتاً باقياً ولا زال ظاهراً ، كما قال الله في سورة الصَّافَات : ﴿ وَإِن كُنتُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴾ (الصافات: ١٣٧، ١٣٨) ، هذه القرى وأنتم ذاهبون إلى الشام من المدينة ، في المملكة الأردنية حالياً ، تمرُّون عليها في الطريق ، انظروا واعتبروا يا أولي الأبصار : ﴿ وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

هذه هي قصَّة لوط وقومه ، الذين سخروا من لوط وقالوا : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (النمل: ٥٦) ، أصبح لوط هو المذنب ، هو المُتَّهَم بالجريمة ، إنه يتطهَّر ، الطهارة أصبحت تهمة في هذا المجتمع ، إنهم أناس

(١) رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣١٢٧) وقال : حديث غريب ، والطبراني في الأوسط (٧٨٤٣) ، وضعفه الألباني في الضعيفة (١٨٢١) ، عن أبي سعيد الخدري .

يَتَطَهَّرُونَ ، وللأسف أصبح المجتمع مجتمع قوم لوط كلهم تقريباً على هذا الحال إلا بيت لوط ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الذاريات: ٣٦) .

امرأة لوط هلكت مع قومها :

حتى امرأة لوط ، لم تفلت من هذا السوء والعياذ بالله ، وهذا من أقدار الله ، أن ترى المرأة الكافرة تحت رجل مؤمن ، وترى المرأة المؤمنة تحت رجل كافر :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ ۗ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ (التحریم: ١٠) .

أما المرأة الأخرى فهي امرأة فرعون ، كانت مؤمنة تحت رجل كافر ، ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

(التحریم: ١١) .

آية للمؤمنين :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١)

إنها آية للمتوسمين ، وآية للمؤمنين . هذا تأكيد على أن في هذه القصة عبرة ،

(١) ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي : ما صارت عليه ديار قوم لوط : ﴿ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : آية من آيات الله الجزائية العقابية ، وهي دالة على سنة من سنن الله في عباده المجرمين . وهذه الآية ينتفع بدلالاتها الذين لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا . اسم الفاعل في عبارة (للمؤمنين) بقوة الفعل المضارع ، يصلح لأن يقع على الحال وعلى الاستقبال بحسب الوضع اللغوي . ويلاحظ أن الآيات : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الحجر: ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧) جاءت فيها مؤكدات بـ (إِنَّ ، والجمله الاسمية ، واللام المزحلقة للخبر) لأن معظم المخاطبين يغفلون عن التبصر بحقائق هذه الآيات ، فهم بحاجة إلى التوكيد المشدد ، لتحريض أفكارهم على دقة التأمل وحسن التدبر .

وَأَنَّ فِيهَا تَبَصْرَةٌ ، وَأَنَّ فِيهَا تَذَكُّرَةٌ ، فِيهَا آيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَالْأَنْبِيَاءَ
وَالرُّسُلَ ، كَمَا أَنَّهَا آيَاتٌ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ، هَذَا تَوْثِيقٌ وَتَأْكِيدٌ لِلآيَةِ السَّابِقَةِ : ﴿ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) .

(١) قال العلامة الخطيب الإسكافي في كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل) (٢/ ٧٧٣ ، ٧٧٤)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ وقال في الآية التي بعدها : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ
مُّقِيمٍ ﴾ ^(١) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

للسائل أن يسأل عن جَمْعِ (الآيات) أولاً ، وتوحيدها آخرًا فيقول : لم اختصت الأولى
بـ (الآيات) والثانية بـ (الآية) على التوحيد ، وهل كانت (الآيات) لو ذكرت في الثانية ،
و(الآية) لو ذكرت في الأولى ، فما يكون في اختيار الكلام؟

والجواب أن يقال : (ذلك) في قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ إشارة إلى ما قُصَّ
من حديث لوط وضيف إبراهيم ، وتعرض قومه لهم طمعا فيهم ، وما كان من أمرهم
آخرًا من إهلاك الكفار وقلب المدينة على من فيها وإمطار الحجارة على من غاب عنها ،
وهذه أشياء كثيرة ، في كل واحدة منها آية ، وفي جميعها آيات لمن يتوسم ، أي يتدبر
السمة ، وهي ما وسّم الله تعالى به العاصين من عباده ليستدلوا بها على حال من عند عن
عبادته فيتجنبها ، فكان ذكر الآيات ها هنا أولى وأشبه بالمعنى .

وأما قوله : ﴿ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فلأنَّ قبلها : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي تلك المدينة
المقلوبة ثابتة الآثار ، مقيمة للنظار ، فكأنها بمرأى العيون لبقاء آثارها ، وهذه واحدة من
تلك الآيات ، فلذلك جاء عقيبها : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . انتهى .